التفسير العلمي للقرآن الكريم

يزعم بعض المفكرين المسلمين في عصرنا الحاضر أن الآيات الكونية في القرآن الكريم لا يجب أن تفسر على ضوء العلم الحديث فان القرآن أسمى من كل هذه العلوم وأن النظريات العلمية مهما كانت قوتها فستظل قاصرة عن فهم كل المعاني في النصوص القرآنية الكريمة . وعلى ذلك ينبغي أن يظل القرآن الكريم في موضعه الصحيح من القدسية ويظل العلم البشري في موضع آخر .

وأغلب الظن أن مثل هذا الاحتراس من هؤلاء المفكرين المسلمين إنما ينبع من قلب مخلص خوفا من أن تكثر التفاسير وتكثر الآراء ، فتكثر الأخطاء ونحمل القرآن الكريم ما هو برئ منه .

ومع تقديرنا لهذه الآراء إلا أنني لا أوافق أصحابها على النتيجة التي وصلوا إليها .. وإننا نعتقد أنها دعوة لا تخدم القرآن الكريم في شئ ..

أولا : لهذه الدعوة جذور تاريخية ما كان يجب أن تخفى عليهم .. فلقد فوجئ فلاسفة الغرب بأن كتبهم الدينية المحرفة قد تناقض بعض ما جاء فيها مع ما اكتشفه العلم الحديث .

ففي التوراة مثلا ذكر أن عمر الأرض بضعة آلاف من السنين في حين اكتشف العلم الحديث على وجه اليقين أن عمر الأرض حوالي خمسة آلاف مليون سنة .. وما ذكرته بعض الكتب الدينية المحرفة أيضا أن الأرض مركز الكون وأن كل ما في الكون يدور

حولها .. وما إلى ذلك من الخرافات التي خطأها العلم الحديث .. كل ذلك في الوقت الذي وجدوا فيه أن القرآن سابق بالحقيقة في كل شئ .. وما وصل العلم البشري إلى حقيقة علمية إلا ووجدوا أن القرآن قد ذكرها وبينها .

حينئذ استشعر فلاسفة الغرب الخطر على دينهم وكتبهم فكان أن قرروا العمل على إخفاء نور العلم القرآني وصرف النظر تماما عما جاء في كتبهم من أخطاء أظهرها العلم الحديث .. هنالك أوعزوا للمسلمين بدعوة في ظاهرها البراءة وفي باطنها الكيد والدهاء ألا وهي إن القرآن هو كلام الله ويجب أن يوضع موضع التقديس فلا ينبغي إذن أن تتطاول عليه علوم البشر بالتفسير .. والقرآن – والكتب الدينية جميعا – شئ ، وعلومنا البشرية شئ آخر لا يلتقيان .

وللأسف خدع بعض المفكرين المسلمين بهذه الدعوة وساروا وراءها يدعون إليها .

ثانيا : الاعجاز البلاغي كان له التأثير الأقوى قديما .. أما في العصر الحاضر فان التفسير العلمي هو الأعظم تأثيرا في نفوس الناس .. فالناس في عصرنا الحاضر لا تؤمن إلا بالأدلة العلمية ولا تثق إلا بالبراهين المنطقية . والاسلام يتعرض لتيارات فكرية معادية ، وبيان الاعجاز العلمي في القرآن أمر ضروري وملح في عصرنا الحاضر ، لأنه هو الوسيلة الأقوى لافحام أعداء الدين ، ولصد الموجة الالحادية العاتية التي تستهدف الجيل الجديد من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . وقد بين القرآن الكريم حقائق علمية كثيرة لم يكتشفها العلم إلا في العصر الحديث .. مثل الحقائق في علم الأجنة .. وحقائق علم الوراثة الحديث وعلم النبات .. وعلوم البحار والفلك وغير ذلك ..

ولا شك أن في إظهار ذلك دليلا على أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر ، لأنه لو كان من عند بشر لتحدث عن النظريات العلمية التي كانت سائدة في عصره .. أما أن يأتي بحقائق علمية لم يكتشفها العلم إلا بعد قرون عديدة من الزمان فان ذلك يضع المتشكك أو المكذب بالقرآن أمام أحد خيارين لا ثالث لهما : إما أن يصدق أن القرآن ليس من عند بشر وإنما هو من عند الله تعالى .. وإما أن يلغى عقله ويتخلى عن الفهم السليم ..

ثالثا : إن القرآن الكريم لم ينزل للعرب القدامى فحسب .. ولكنه نزل إلى كل العصور إلى يوم القيامة .. مصداق قوله تعالى في سورة الأنعام / ١٩ (**وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**) أى إن القرآن نذير لكل من بلغه .. وحجة عليه يسأل عنه إذا كذب به .. وقد قال

النبي صلى الله عليه وسلم : « بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » رواه أحمد .. من هذا نفهم أن القرآن الكريم نزل للناس كافة في كل زمان ومكان .. وما دام الأمر كذلك فلا يجب أن نكتفي بما جاء في التفاسير القديمة من تفسير الآيات الكونية والعلمية .. هذا مع احترامنا وتقديرنا لكل ما جاء في تلك التفاسير .. والقرآن الكريم خاطب الناس في كل العصور على قدر علومهم .. فأجاب العرب القدامى مثلا على تساؤلهم عن الأهلة في الآية الكريمة في سورة البقرة / ١٨٩ **(يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج)** . أما للناس في العصر الحديث فجاءت الآيات الكونية في علوم الفلك والطب وغير ذلك من العلوم .. ونقرأ في علم الفلك مثلا قوله تعالى في سورة فصلت / ١١ **(ثم استوى إلى السماء وهي دخان)** والسماء الدخانية لم يعرفها إلا العلم الحديث فحسب .. وقوله تعالى في سورة يس / ٣٨ ـ ٤٠ : **(والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)** وهي حقائق علمية لم يعرفها العلم البشري إلا في العصر الحديث فحسب ..

وهكذا فقد خاطب القرآن الكريم كل عصر من العصور على قدر أفهامهم من غير مخالفة للحقائق العلمية التي تخفى عليهم .. فاذا جاء الزمن الذي يصل العلم فيه إلى فهم البعض من هذه الحقائق العلمية .. وجد التعبير القرآني موجودا ودالا عليها إما تصريحا وإما إشارة وتلميحا .

رابعا : ليس الأمر في الكونيات من الآيات الكريمة مثل الأمر في الشرعيات منها .. فالشرعيات من الآيات كان لا بد أن يتضح فيها التفسير تماما قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .. أما الكونيات فقد ترك بعضها للاجتهاد البشري على قدر طاقة الناس العقلية والعلمية في أى عصر من العصور مصداق ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت / ٤٣ : **(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)** وقوله تعالى في سورة العنكبوت / ٢٠ : **(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)** وقوله تعالى في سورة يونس / ١٠١ : **(قل انظروا ماذا في السموات والأرض)** .

والمفسرون للآيات الكونية من العلماء يحاولون تلمس الصواب على ضوء ما لديهم من العلوم .. ولقد طرق الامام الشيخ محمد عبده التفسير العلمي للقرآن الكريم عندما جعل من قوانين الجاذبية لنيوتن أساسا لتفسير الآية الكريمة **(والسماء وما بناها)** الشمس / ٥ .

خامسا : أن تفسير الآيات الكونية والعلمية على ضوء العلوم الحديثة من اهم غاياته الاستمتاع بالنظر في كتاب الله نظرة الاجلال والايمان العميق والاعجاب مما يزيد الطمأنينة

وتعميق الايمان حتى في قلوب المؤمنين .. فهذا سيدنا ابراهيم عليه السلام وهو الواثق والعارف بربه يقول في سورة البقرة / ٢٦٠ : **(وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)** .. وسيدنا موسى كان يريد أن يرى الله وذلك في قوله تعالى في سورة الأعراف / ١٤٣ : **(قال رب أرني أنظر اليك)** .

سادسا : على أنه ينبغي الاحتراس في التفسير العلمي للقرآن الكريم : فلا يجب أن يعتبر أي تفسير علمي تفسيرا حتميا للنص القرآني الكريم فقد يكون النص القرآني يعني ما توصلنا إليه من تفسير وقد يعني شيئا آخر لم تصل إليه علومنا ولا أفهامنا بعد .

كما لا يجب الاسراع في محاولة المطابقة بين مدلول النص القرآني وبين النظريات العلمية بقصد إظهار الاعجاز العلمي للقرآن الكريم .

كما لا يجب أن ننسى أن القرآن الكريم لم ينزل كتابا في الطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو غير ذلك من العلوم .. وإنما نزل القرآن الكريم علاجا شافيا للانسانية كلها .. وهدى للناس كافة يعطيهم النهج الصحيح في كل أمر من امور حياتهم .. لذلك لا يجب أن نحاول أن نستخلص من كل آية نظرية علمية .. ومن يفعل ذلك لا يكون عالما وإنما يكون إنسانا عاطفيا لا يستند إلى علم متين .

ولا يجب أن يكون التفسير العلمي إلا على أساس **الحقائق العلمية الثابتة** وحدها .. وليس **النظريات العلمية** .. فالنظريات العلمية تتعرض للخطأ والصواب .. والتغيير والتبديل .. فلا يجب أن نحملها على القرآن الكريم او نحمل القرآن الكريم عليها .

سابعا : وحتى مع الاعتماد على الحقائق العلمية في التفسير العلمي ، لا يجب استبعاد احتمال الخطأ في التفسير العلمي .. فلا يوجد أى مفسر معصوم من الخطأ .. فالعصمة كانت للرسول صلى الله عليه وسلم فقط وليس لغيره من البشر .. ولو أننا امتنعنا عن التفسير العلمي خشية الوقوع في الخطأ لكان من الضروري أن يمتنع كل مفسر للقرآن عن التفسير بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

من أجل ذلك نرى أن المسلمين في عصرنا الحاضر ينبغي عليهم أن يستعملوا كل ما آتاهم الله من علم في خدمة القرآن وإظهار ما فيه من كنوز المعرفة كل ذلك مع اتباع كل خطوات الحذر والاحتراس التي ذكرناها .

ولقد وعد الله تعالى عباده بأن يؤتيهم من العلم في العصور المختلفة ما يتيح لهم فهم بعض ما في القرآن من بيان كل حسب فهمه وعلمه مصداق ذلك قوله تعالى في سورة النحل / ٨٩ : **(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)** وقوله تعالى في سورة القيامة / ١٨ و١٩ : **(فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه)**

والله سبحانه الموفق لما فيه الخير والرشد والسداد .